كتاب (المخطوطات)، لـ ألفونس دان
(قراءةٌ علميَّةٌ)

خالد فهمي
كلية الآداب – جامعة المنوفية
(مصر)

ملخَّص

تتناول هذه القراءة العلمية فحصًا للترجمة العربية لكتاب (المخطوطات) لـ ألفونس دان، تلك الترجمة التي نهض بها مصطفى الطوبي، ونشرها معهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

وتقف هذه القراءة أمام ما يلي:

١- الخطوط العريضة للحضور الاستشراقي في حقل علم المخطوط في المجال العربي.

٢- كتاب المخطوطات: مادَّته وانتماءاته المعرفية وقيمته التاريخية والحضارية.

٣- كتاب المخطوطات: تحليل خطاب ما يبقى.

وقد كشفت هذه القراءة العلمية لهذا الكتاب، عن حُزْمة من الآثار الإيجابية، كان أهمها تعزيز نظرية المخطوط العربي باستكمال الحلقة الأولى من حلقات التصنيف في علم المخطوط في العصر الحديث.

الكلمات الدالَّة

[المخطوطات – ألفونس دان – مصطفى الطوبي – الكوديكولوجيا – معهد المخطوطات العربية]

مدخل: بعض رياح الخير تأتي من الغرب!

توشك النشأة المعاصرة للنشر النقدي للنصوص، أو تحقيق النُّصوص التراثية في المجال العربي، أن تكون انعكاسًا صِرْفًا للتأثير الغربي الذي صدَّر تقاليده إلى الشرق من بوابات متعددة.

ويمكن إيجاز صور هذا التأثير الغربي في التقاليد العربية في ما يلي:

أولًا- تأثير الأدبيَّات الغربية في مجال علم المخطوطات والنشر النقدي في الأدبيات العربية الرائدة المعاصرة في المجال نفسه من طريقي الاستلهام، والترجمة إلى العربية في الوقت نفسه، وهو الأمر الذي يكشف عن أسماء أعلام من مثل: ألفونسو دان، وجان سوفاجيه، ورِيجيس بلَّاشير، وغيرهم.

ثانيًا- تأثير النماذج العملية الغربية التي قام عليها نفرٌ من المستشرقين الفرنسيين الذين قدموا نشرات نقدية لعدد كبير من النُّصوص التراثية العربية الموزَّعة على حقول معرفية متنوعة.

ثالثًا- تأثير الأعمال المرجعية المعجمية المختصَّة بمصطلحية علم المخطوطات، وعلم النشر النقدي للنصوص، فقد أسهمت الثقافة الفرنسية في خدمة مصطلحية علم المخطوط بأعمال مرجعية معجمية مختصَّة، من مثل: مصطلحات الكوديكولوجيا، لـ دينيس موزيريل.

والحقيقة أن ثلاثة هذه المسارات وجَدت طريقها للمجال العربي الحديث والمعاصر من خلال نوافذَ معتبَرة للتلاقُح الحضاري؛ يمكن إجمالها في ما يلي:

أولًا- التأثير المباشر للمدرسة الاستشراقية الفرنسية من خلال الأساتذة الذين عمِلوا في الجامعة المصرية إبَّانَ نشأتها الأولى.

ثانيًا- التأثير المباشر للترجمة عن الفرنسية، وهو الأمر الذي تجلَّى في ترجمة

كتابات فرنسوا ديروش، وجان سوفاجيه، وريجيس بلاشير، وألفونسو دان، وجاك لومير، وغيرهم.

ثالثًا- التأثير المباشر للبعثات المصرية والعربية إلى فرنسا، وفي هذا السِّياق يجدُر بالذكر تلك الحُزْمة المتازة من مصطلحات النشر النقدي للنصوص التي أذاعها أمثال محمد مندور سنة ١٩٤٤م ثم ١٩٦٥م في كتابه (في الميزان) في سياق نَقْده العلمي للنشرة النقدية التي نهض بها عزيز سوريال لكتاب (قوانين) بن مَمَّاتي، تلك المقالة التي ورد فيها عدد من مصطلحات الحقل منقولة عن اللسان الفرنسي لأول مرة إلى العربية.

رابعًا- التأثير المباشر للاحتكاك العربي بدوائر الاستشراق الفرنسي في مؤتمرات المستشرقين التي كان يحضُرها نفرٌ من الرواد العرب المشتغلين بالفيلولوجيا والنشر النقدي من أمثال: أحمد تيمور باشا رحمه الله (ت١٩٣٠م).

وبناء على ذلك فإن الحِفاية بترجمة مصطفى الطوبي بهذا الكتاب تأتي في سياقها الطبيعي تمامًا.

١/ الكتاب: مادَّته وانتماؤه المعرفي وقيمته الحضارية

١/١. مادة الكتاب: يتضمَّن هذا الكتاب الرائد أربعة فصول:

١- المخطوطات ومسألة النِّساخة: (أحسن النُّساخ / أسوأ النُّساخ / المظهر المادي للمسألة / الإملاء والنِّساخة / أدوات الناسخ / جِلْسة الناسخ / المظهر الفيلولوجي للمسألة / النموذج / عملية النِّساخة / ما بعد النِّساخة / الزخرفة / التلوين / المراجَعة / الشكل والغلاف / الصورة النفسية للنِّساخة / العمليات الأربعة / قراءة النموذج / حفظ النَّص / الإملاء الداخلي / عمل اليد / الثوابت / المُعامل الفردي / الخطأ المفرح / القضايا الفيلولوجية) (ص٢٩-٧١).

٢- المخطوطات ومسألة الباليوغرافيا والكوديكولوجيا: (الباليوغرافيا / مجال الباليوغرافيا / الباليوغرافيا الشرقية / الباليوغرافيا اليونانية / الأصل التاريخي للخطّ اليوناني المُنَمَّل / مراكز النَّسْخ عند اليونان / تاريخ الخطوط اليونانية / البالوغرافيا اللاتينية / المظاهر الجديدة للباليوغرافيا اللاتينية / بداهات / الباليوغرافيا المُعاصرة / الكوديكولوجيا / فهرسة المخطوطات / فهرس الفهارس / ملخَّصات المخطوطات / فهارس المخطوطات المؤرَّخة / فهارس النُّساخ / فهرس المُجَمِّعين والمجموعات / فهارس صور المخطوطات) (ص٧٣-١١١).

٣- المخطوطات ومسألة تاريخ النُّصوص (الصعوبات / الأصول / المظاهر المتوالية للأصل / كيفية قراءة الأصول / النماذج العليا / ما قبل النماذج العليا / النماذج العليا اليونانية / النماذج العليا اللاتينية / أقرب نسخة مشتركة لمأثور المخطوطات / النُّسخ المنقحِرة / النَّقْحرة اليونانية / أهمية النقحرة اليونانية / النقحرات اللاتينية / الأهمية الضئيلة للنقحرات اللاتينية / النُّسخ النموذجية (الأم) / مراحل النُّسخ النموذجية / المشترك بين المخطوطات وبناء النُّسخة الأم / إحصاء النُّسخ الأمهات / الإبرازات والخروم / الشروط التاريخية / المخطوطات المعاصرة / الزمن الجديد / الخروم) (ص١١٣-١٧٩).

٤- المخطوطات ومسألة التحقيق (الأوضاع القديمة / الموقف البراغماتي / أول موقف علمي / البحث عن المنهج / من أجل البحث عن النقد التاريخي / الأوضاع العصرية / مفهومات ذائعة خاطئة / أحسن المخطوطات / المخطوط القديم / المخطوط الأصلي / جميع النُّسخ المخطوطة / احترام مأثور المخطوطات / التوضيح النهائي / صيغ جديدة / توقعات وآفاق / معرفة المنجز العلمي / البحث عن المخطوط الضائع) (ص١٨١-٢١٠).

١/٢. الانتماءات المعرفية لكتاب (المخطوطات)، لـ ألفونس دان: إن تحليل الانتماءات المعرفية لكتاب (المخطوطات)، لـ ألفونس دان، ينهض علىٰ فحص واجهة هذا العمل، الممثَّلة في:

أ- معلومات صفحة العنوان.

ب- المعلومات الواردة في مقدمة المترجم / والمراجِع / والمؤلِّف جميعًا.

ثم هي تنهض علىٰ فحص مادة متن الكتاب متمثلة في:

أ- عنوانات فصوله ومباحثه.

ب- المادة العلمية التفصيلية المنضوية تحت هذه الفصول والمباحث.

ج- الجهاز الاصطلاحي الواصف للمعرفة التي يتضمنها الكتاب.

د- مجموعات المصادر والمراجع التي اعتمد عليها المؤلف في بناء هذا الكتاب. وهذه الانتماءات المعرفية يمكن رصْدها في ما يلي:

١/٢/١. حقل دراسات التاريخ: من الواضح جدًّا - بتحكيم المعامِلات السابقة - أن هذا الكتاب ينتمي إلىٰ حقل دراسات التاريخ؛ لأنه - بهدوء شديد - يتعلق بخدمة آثار الكتاب القديم، وتاريخ اللغات الأوروبية القديمة، وعدد من تقاليد الصناعات المعرفية القديمة، وتاريخ قطاع من الأفكار القديمة، وتاريخ قطاع من الممارَسة الحضارية المادية، المتعلِّقة بصناعة الكتاب، وما يدور في فَلَكها من صناعات حضارية.

والحقيقة أن الحكم علىٰ هذا الكتاب بانتمائه إلىٰ حقل الدراسات التاريخية مدعومٌ بصَنيع جِيل من الرُّواد والمؤرِّخين العرب المعاصرين الذين جعلوا من العلم بمادة علم المخطوطات واحدًا من العلوم المساعدة في البحث التاريخي، من أمثال: حسن عثمان في كتابه (منهج البحث التاريخي، دار المعارف، القاهرة، ط٧ سنة ١٩٩٦م، ص٢٥-٥٢)، الذي يقول فيه (ص٢٥):

«دراسة التاريخ متصلة بأنواع مختلفة من المعرفة الإنسانية؛ فمِن الضروري للمؤرخ أن يكون واسع الثقافة، عارفًا بالعلوم المتصلة بدراسة التاريخ وكتابته، ويمكن أن تسمىٰ العلوم اللازمة للمؤرخ... بـ: العلوم المساعدة، أو العلوم الموصلة».

ومما قرَّره من هذه العلوم المساعدة ما يلي: الفيلولوجيا (ص٢٧)، يقول:

«والفيلولوجيا (philology) - فقه اللغة - من العلوم المساعِدة الضرورية لدراسة فروع كثيرة من التاريخ».

ويقول (ص٢٧):

«وعلم قراءة الخطوط (paleography) من العلوم الإنسانية لدراسة نواحٍ كثيرة من التاريخ منذ أقدم العصور حتىٰ أزمان متأخرة».

وقد اتَّضح من خلال فحْص مادة كتاب ألفونس دان أن هذين العلمين واقعان في الصميم من عناية علم المخطوطات.

ونجد الوعي نفسه عند حسان حلَّاق في كتابه (مقدمة في مناهج البحث التاريخي والعلوم المساعدة وتحقيق المخطوطات بين النظرية والتطبيق، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م، ص٥٧-٨٧)، فقد ذكر من العلوم المساعدة للتاريخ ما يلي:

أ- فقه اللغة؛ الفيلولوجيا (ص٦٧-٦٩).

ب- علم قراءة الخطوط؛ الباليوغرافيا (ص٦٩).

وهذان المثالان مسبوقان بوعي الدراسات التاريخية الغربية التي تنبَّهت منذ فترة مبكِّرة إلىٰ انتماء علم المخطوطات إلىٰ الدراسات التاريخية بموجب كونها علمًا مساعدًا يلزم المؤرخون تحصيله علىٰ ما يظهر من اعترافات لـ أنجلوا وسينوبوس في: (المدخل إلىٰ الدراسات التاريخية، لـ أنجلوا وسينوبوس، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، ضمن النقد التاريخي، وكالة المطبوعات، الكويت ط٤ سنة ١٩٨١م، ص١-٢٥٢).

يقول (ص٣٢):

«إن علم النقوش اليونانية واللاتينية **وقراءة المخطوطات** المتخلِّفة عن العصر القديم والعصر الوسيط - كُلُّ هذا يُعدُّ بمثابة «علوم مساعدة للتاريخ، أو بعبارة أدقَّ: لـ: الدراسات التاريخية المتعلقة بالعصر القديم والعصر الوسيط».

١/٢.٢. حقل الدراسات التراثية: هذا انتماء معرفي بادي الظهور بصورة واضحة؛ ذلك أن المخطوطات بوصفها أوعية مادية هي تراث مادي من جانب، وبوصفها حاملة لنصوص ومعرفة، هي ناتج عمل العقل التراثي للأمم المختلفة.

١/٢.٣. حقل دراسات الدينين اليهودي والمسيحي: تأسست أجزاء كبيرة من علم المخطوطات في المنجَز الغربي بالأساس، على رعاية الكتاب المقدس بعَهْدَيه، مما يجعل- والأمر بهذه الصورة -هذا الكتاب واحدًا من مصادر دراسة الدينين اليهودي والمسيحي، وربما مثَّل مدخلًا لدراسة الآداب الدائرة في فلَك الكتاب المقدس، واللغة الدينية المرتبطة به.

١/٢.٤. حقل دراسات الفيلولوجيا أو فقه اللغة: ثمَّة حضورٌ ظاهرٌ لعدد من مسائل الفيلولوجيا أو فقه اللغة في التراثين اليوناني واللاتيني في هذا الكتاب بصورة واضحة، الأمر الذي يجعل منه أحد المراجع المهمَّة لدراسات هذا الحقل.

١/٢.٥. حقل دراسات الكوديكولوجيا (علم الكتاب المخطوط بالحرف اليدوي): هذا الانتماء هو أظهر الانتماءات المعرفية الحاكمة لهذا الكتاب، بل إنه يعد التأسيس العملي الذي أوجد المصطلح إلى الوجود اللغوي الحديث.

ويمثِّل هذا الكتاب أحدَ أهمِّ المصادر المؤسسة لنظرية المخطوط العربي؛ إذ إنه يؤسِّس لما يمكن أن نطلق عليه «حقبة ما قبل الانطلاق»، وقد أسهم التعريف بموضوعاته ومسائله - وهو التعريف الذي سبق ظهور الترجمة العربية الكاملة بما

يزيد عن عقدين- الذي نهض به مصطفى الطوبي في كتابه (مقالات في علم المخطوطات، الرباط، فبراير، ٢٠٠٠م) في دعم الإرهاصات الأولى لعلم المخطوط في العصر الحديث بوجه عامٍّ.

١/٢/٦. حقل الدراسات الحضارية: ينتمي هذا الكتاب إلى حقل الدراسات الحضارية، ولا سيَّما في بُعْدها المادي؛ ذلك أنه يفحص عددًا من الموضوعات المنضوية ضمن الصناعات الحضارية المرتبطة بصناعة الكتاب، وخطوطه، وتجليده، وجمالياته.

١/٢/٧. حقل دراسات الفهرسة: يحمل عددٌ من مباحث هذا الكتاب التي خصصها المؤلِّف لعدد من مسائل الفهرسة والفهارس - على القول بانتمائه المعرفي إلى حقل دراسات الفهرسة، وفهرسة المخطوطات بشكل خاص.

١/٢/٨. حقل دراسات النشر النقدي للنُّصوص (=تحقيق النُّصوص التراثية): استقرَّ النظر في دراسات علم المخطوطات على أنه العلم الذي يدرس الفيلولوجيا من النظر إلى المضمون، ويدرس الكوديكولوجيا بالنظر إلى المادة الحاملة للنصوص، وعليه فإن دان يؤكد في كتابه أن علم المخطوطات يتوجه إلى فحص النشر النقدي للنصوص، أو تحقيق النُّصوص على ما يَشيع في التقاليد العربية، وهو ما نلمَس انعكاساته في:

أ- عدد من مباحث الكتاب.

ب- تخصيص قائمة نوعيَّة لمراجع نظريات النشر النقدي ومناهجه في ببليوغرافيا هذا الكتاب (ص٢٢٧-٢٢٨).

١/٢/٩. حقل دراسات الباليوغرافيا (دراسة الخطوط القديمة): هذا الانتماء واضح جدًّا من تحليل مباحث لكتاب، ومن ماهية المخطوط نفسه بوصفه كتابًا مكتوبًا بالخط اليدوي بالأساس.

١/٢/١٠. حقل دراسات الفنون: شهدت المخطوطات في الحضارات والثقافات واللُّغات المختلفة نوعَ تطور أصاب - ضمن ما أصاب - الأبعاد الجمالية للمخطوطات التي تجلَّت في ما يلي:

أ- التوظيف الفني والجمالي للخطوط، ولا سيَّما على مستوى العنوانات.

ب- العناية بأبعاد الزخرفة، والرسوم والتَّصاوير.

ج- العناية بالأبعاد الجمالية والفنية في التسفير والتجليد، وعمليات التذهيب المرتبطة بهما.

د- العناية بالأبعاد الجمالية والفنية لأثاث المخطوطات، وخزائن حفظها وصيانتها.

وقد ظهر في بعض مسائل هذا الكتاب ما يحمل على القول بانتمائه إلى حقل الدراسات الجمالية والفنية التُّراثية.

هذه عشرة انتماءات معرفية قابلة للزيادة من جانب، وقابلة للتفصيل الزائد في غير هذا السياق من جانب آخر.

والحقيقة أن التوسُّع النسبي في فحص هذه الانتماءات المعرفية لهذا الكتاب هدفُه كامنٌ في إرادة الدلالة على المناطق الوسيعة التي يمكن استثماره فيها.

٣/١. كتاب المخطوطات لـ ألفونس دان: خطاب القيمة: تقف خلف ترجمة هذا الكتاب إلى العربية حُزْمة من العلامات التي تصبُّ في تقدير العلمية والحضارية في المجال العربي.

وتتمثَّل هذه القيمة المعرفية والحضارية في ما يلي:

أولًا- البُعد المؤسِّس الذي ينهض به هذا الكتاب بوصفه العمل الرائد الذي

افتتح به تاريخ علم المخطوطات وجوده الحديث في الحياة المعرفية الإنسانية.

ثانيًا- نهوض الترجمة إلى العربية على يدي أحد أهمِّ المختصِّين في دراسة علم الكوديكولوجيا في المجال العربي، وهو مصطفى الطوبي (١٩٦٨م)، وتأمل منزلة الطوبي في الميدان تكشف عن حيازته للمؤهّلات العلمية والعملية الممتازة، التي يمكن تلخيصها في ما يلي:

أ- الخبرة الأكاديمية في تدريس الكوديكولوجيا.

ب- الخبرة التأليفية والبحثية في مجال الكوديكولوجيا.

ج- الخبرة العملية الميدانية التي حازها من طول الممارسة التطبيقية في التعامل مع المخطوطات في واحدة من أعرق دور المخطوطات الغربية.

د- الخبرة بالجهاز الاصطلاحي للحقل الذي يظهر من اشتراكه في تصنيف أشهر معجم عربي للمصطلحية الكوديكولوجية.

هـ- الخبرة الترجمية في المجال؛ فقد سبق له ترجمة كتاب (المدخل إلى علم المخطوط، لـ جاك لومير، الرباط، المملكة المغربية، ٢٠٠٦م).

ثالثًا- النهوض المؤسِّس الناشر للترجمة العربية؛ ذلك أن صدور الترجمة العربية لكتاب ألفونس دان عن معهد المخطوطات العربية بالقاهرة يمثل قيمة مضافة؛ لأنه صدور منبئ عما يلي:

أ- تسكين هذه الترجمة في إطار سُهْمة المعهد العريق في توطين ثقافة العلم بالمخطوط في الثقافة العربية المعاصرة، ولا سيَّما إذا أخذنا في الاعتبار سوابقَ الأدبيات التي اضطلع المعهد بنشرها، من مثل: تقاليد المخطوط العربي، والمرجع في علم المخطوط، لـ آدم جاسك، والكتاب العربي المخطوط: مقدمات تاريخية، لـ فرانسوا ديروش.

ويؤكد ذلك الوعي تبنيَ المعهد هذه الترجمة، بدءًا من الاقتراح والمتابعة والمراجَعة، وانتهاء بالإخراج والنشر.

ب- المتابعة الإعلامية الداعمة للتعريف بالكتاب التي نهض بها المترجم الكريم في حلقة مرئية بثَّتها صفحة المعهد على سبيل الترويج والتعريف بالترجمة العربية.

رابعًا- حِياطة الترجمة العربية بالاشتراطات العلمية التي تمثَّلت في الأعمال التالية:

أ- المتابَعة الدقيقة لمراحل الإنجاز خطوة بخطوة.

ب- المراجعة العلمية واللغوية.

ج- التقديم العلمي لفيصل الحفيان مدير معهد المخطوطات العربية السابق.

خامسًا- صدور الترجمة العربية مشفوعة بتطبيقات نتائج بحوث الاستعمال التي ترعى التيسير على المستعملين المتوقعين، وهو الأمر الذي تجلى في خدمة هذه الترجمة بما يلي:

أ- صناعة المترجم كشافًا عامًّا ضمَّ الأعلام، والمدن، والمصطلحات، ورتَّبها ترتيبًا هجائيًّا ألفبائيًّا مشرقيًّا جذعيًّا وفق منطوق المداخل.

ب- إلْحاق قوائم ببليوغرافية خادمة لمجالات الكتاب القديم، وعلم المخطوط القديمة، واللغات القديمة، وكتابات نهاية العصر القديم وفجر العصر الوسيط، ومراكز النِّساخة وأقاليم الخطِّ، والمخطوطات الجامعية، ومجموعات المصوَّرات، وصناعة الكتاب، وخزائن المخطوطات، وفهارس الخزائن المعاصرة، وتأريخ النُّصوص، ونقد النُّصوص، وإعداد التحقيق .

وهي ملاحقُ بالغة الأهمية للنهوض بالوظائف التوثيقية والمعرفية معًا.

٢/ كتاب (المخطوطات)، لـ ألفونس دان: تحليل خطاب ما يبقىٰ!

انطلاقًا من فحْص القيمة التاريخية والمعرفية والحضارية لكتاب (المخطوطات) لـ ألفونس دان؛ فإن من المهمّ جدًّا فحص خطاب ما يبقىٰ؛ ذلك أن إحدىٰ وظائف المراجَعات العلمية النقدية تتوجَّه - علىٰ نحو خاص - إلىٰ دلالة المستعملين المتوقَّعين إلىٰ مجالات استثمار الكتاب الممكنة؛ من أجل تشغيل معرفي وحضاري في المجال العربي.

وفي ما يلي محاولة تهدف إلىٰ رصد كليات ما يمكن أن يبقىٰ ويصلح للاستثمار والتشغيل الحضاري والمعرفي في الواقع البيداغوجي والثقافي في المجال العربي.

٢/١. الرؤية الاستيعابية والشُّمولية لحقل دراسات المخطوطات: يكشف تحليل بِنْية كتاب (المخطوطات) لـ ألفونس دان عن اجتماع من نوع خاص بين الفيلولوجيا والكوديكولوجيا، وهو اجتماع منبئ عن روح استيعابية يتَّسع معها حدود حقل دراسات علم المخطوط؛ حيث تتجاوز مناقشة مسائل النِّساخة ومشكلات الباليوغرافي مع مسائل تاريخ النُّصوص، والنشر النقدي للنُّصوص تجاورًا مثمرًا.

وهذه الرؤية الاستيعابية المتسعة لحدود حقل دراسات المخطوطات مناسبة جدًّا للعقل العربي الذي لا يرىٰ فصل بحوث تحقيق النُّصوص ونقدها عن بحوث الكوديكولوجيا من جانب، فضلًا عن نهوض الأعلام الدارسين والمشتغلين في الحقل بالمهمتين معًا؛ مهمة الدراسة الكوديكولوجية، والدراسة الفيلولوجوية معًا.

وهذه الرؤية المتَّسعة الاستيعابية لدىٰ ألفونس دان كانت محل تنبُّه من فيصل الحفيان عندما قال في تقديمه للترجمة العربية هذه (ص١٠٩):

لقد «أراد الرجل... أن يحيط بالأبعاد التي تتصل بالمخطوطات جميعًا»، ويقول في عبارة - ربما تكون أكثر وضوحًا وترجمة لما نقرِّره - (ص٨):

«اختار (دان) كلمة واحدة [المخطوطات]؛ لتكون عنوانًا ... **وكأنه يريد أن يجمع شمل** ما يتصل بالمخطوطات في عمله، وكأنه - مرة أخرىٰ - ... يرىٰ أن المخطوطات **قضية كبيرة** ... تتأبَّىٰ علىٰ التجزئة، وتحتاج إلىٰ النظر الكلِّي... تشمل التعرف علىٰ تقاليد تحرير المعرفة (صناعة النِّساخة) بمظاهرها **المادية** والفيلولوجية».

٢/٢. الطُّموح نحو تأسيس رؤية كونية / إنسانية برعاية من «علم المخطوط» الكوني: يشترك الكتاب القديم في كلِّ ثقافات الدنيا في قدر معتبَر من السِّمات المتَّحِدة، وهي السمات التي تنهض ببيان ماهية المخطوط من حيث هو:

أ- كتاب كراس codex وليس لفافة (ص٢٦).

ب- مكتوب بالخطِّ اليدوي، علىٰ الرغم من توسُّع دان في هذا الأساس (ص٢٥).

ج- يتحرَّك حاملًا نصًّا هو نتاج عمل العقل الذي أنتجه مصوغًا في لغة ما.

د- يتمتَّع بقدْر ظاهر من الموثوقية، فقد قرَّر أن معنىٰ المخطوط يشير (ص٢٦) للأصالة.

وقد التقط هذا الملمح فيصل الحفيان عندما قرَّر في تقديمه (ص٨-٩) أن (دان):

«يريد أن يتحدَّث عما يمكن تسميته بـ(الفيلولوجيا العالمية) أو (الفيلولوجيا الكلية).

وقد ظهر ذلك جليًّا بلا تمويه في مقدمته (ص٢١):

«إن منهجنا في البحث الذي بدأنا في تطبيقه من الآن بحسب الأصول المتعارف عليها - قد يطبَّق علىٰ **تراث الشرق**. حتىٰ إن دراسة مخطوط سُرْياني، وأرمَني وقِبْطي، **وعربي، لا تختلف** نهائيًّا عن دراسة مخطوط يوناني أو لاتيني؛ فالقواعد التي وضعها

الفيلولوجيون الكلاسيكيون تتلاءم مع دراسة كل المخطوطات في الثقافات واللغات المختلفة ... ولذلك فكرت أن أتحدث هنا باسم كل الفيلولوجيين المهتمين بالعصور القديمة والعصر الوسيط، يظهر هذا من خلال العنوان الذي وضعته لكتابي [هذا] (المخطوطات)، والذي لا يفتُر عن بعض الطموح» الذي أصفِه هنا بـ«الكوني»؛ لأن (دان) نفسه يرى (ص٢١): أنه مشروع مفتوح للآخرين.

٢/٣. التوجه نحو بناء إحدى الحلقات المفقودة في تأسيس نظرية المخطوط العربي: كان تأخُّر ترجمة كتاب (المخطوطات) لـ ألفونس دان سببًا في وجود حلقة «فارغة» من حلقات بناء نظرية المخطوط العربي في الثقافة العربية المعاصرة.

لقد سبق ترجمة عدد من أدبيات علم المخطوطات إلى اللسان العربي، ولكنها جميعًا كانت لاحقة لمنجز (دان)، وهو الأمر الذي جعل الصورة تبدو غير متَّسقة في المجال العربي.

لقد سبق ترجمة الأدبيات التالية:

أ- مدخل إلى علم المخطوط لـ جاك لومير، صدر الأصل عام ١٩٨٩م وعام ٢٠٠٦م، ثم صدرت الترجمة العربية لـ مصطفى الطوبي عام ٢٠٠٠م.

ب- المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي، لـ فرانسوا ديروش، صدر الأصل عام ٢٠٠٤م، ثم صدرت الترجمة العربية لـ أيمن فؤاد سيد عام ٢٠٠٥م.

ج- المخطوطات العربية وتقاليدها لـ أنس خلدوف، صدر الأصل عام ٢٠٠٠م، ثم الترجمة العربية عن مركز جمعة الماجد عام ٢٠٠٩م.

د- الكتاب العربي المخطوط: مقدمات تاريخية، لـ فرانسوا ديروش، صدر الأصل عام ٢٠٠٥م، ثم الترجمة العربية لـ مراد تدغوت عام ٢٠١٦م.

والحقيقة أن المجال العربي استطاع بهذه الترجمات أن ينتج نافذة جيدة على المنجَز الفرنسي في ميدان خدمة علم المخطوطات، وينتظر فتح نافذة مماثلة على المنجَز الألماني، ولا سيَّما كتابات كارل لخمان الفيلولوجي الألماني العظيم، الذي لا يقل قيمة عن منجَز الفرنسيين بأيِّ حال، بل إنه سابق من المنظور الزمني على الأقل لذلك المنجز الفرنسي.

وبناء على ما تقدَّم يمكن أن نقرر أن ظهور كتاب (دان) الذي هو أول كتاب في المخطوطات بحكم صدوره أولًا عام ١٩٤٩م - يمثل خطوة في طريق استكمال بناء صورة مترابطة لتاريخ نظرية المخطوط في الثقافات العربية المعاصرة.

٤/٢. دعم الجهاز الاصطلاحي لعلم المخطوط في اللسان العربي وتطوره: تبدو الأعمال المرجعية المعجمية المختصَّة بتحرير مفاهيم مصطلحات علم المخطوط في اللسان العربي - فقيرة إلى حدٍّ كبير.

أنجز علماء النشر النقدي للنصوص وعلماء المخطوطات في المجال العربي المشرقي والمغربي حُزْمة من محاولات خدمة مصطلحات الحقل تمثَّلت في ما يلي:

أ- الملحق الذي صنعه عبد السلام هارون (ت١٩٨٨م) لمصطلحات علم المخطوطات في كتابه: تحقيق النُّصوص ونشرها (ط١٩٥٤م) ضم ٤٩ مصطلحًا (ص١١٣)، ثم زادت القائمة إلى (٥٤) مصطلحًا في ط٤، ١٩٧٧م (ص١٣٢).

ب- المحاولة التي صنعها إبراهيم شبوح بعنوان: (نحو معجم تاريخي لمصطلح ونصوص صناعة المخطوط العربي)، التي نشرها ضمن أعمال مؤتمر مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي الثالث بلندن ١٩٩٩م، بعنوان: (صيانة وحفظ المخطوطات الإسلامية).

ج- معجم مصطلحات المخطوط العربي (قاموس كوديكولوجي) لـ أحمد شوقي بنبين ومصطفى الطوبي، الذي صدر بالرباط في خمس طبعات شهدت زيادات واضحة.

والحقيقة أن المترجم مصطفى الطوبي أحسن عندما وضع عددًا من المصطلحات ضمن الكشاف العامِّ الذي صنعه للترجمة العربية لكتاب (دان) ضمت قطاعًا معتبرًا من هذه المصطلحات، من مثل:

- الإبرازة / الباليوغرافيا / الخَرْم / الطلس / الطُّومار / العَرْضة / المسوَّدة / وغير ذلك.

وبذلك تكون هذه الترجمة العربية لكتاب (المخطوطات) لـ ألفونس دان مهمة جدًّا في سياق تعزيز حضور الجهاز الاصطلاحي لقطاعات من مصطلحات الكوديكولوجيا والفيلولوجيا في المجال العربي، ولا سيَّما أن تلك المفاهيم التي ما تزال تعاني من قدر من الاضطراب، وفي مقدِّمتها المفهوم الموسَّع للمخطوط الذي يتجاوز الكتاب المكتوب بالخطِّ اليدوي إلى الكتاب المكتوب على الآلة الكاتبة ويعد من النوادر ومن أوائل المطبوعات التي فقدت أصولها الخطية.

٣/ الترجمة العربية لكتاب المخطوطات، لـ ألفونس دان: خصائص ومَلاحظ

١/٣. خطاب الخصائص العامة: تكشف قراءة الترجمة العربية لكتاب (المخطوطات) لـ ألفونس دان التي نهض بها مصطفى الطوبي عن جملة من الخصائص المهمة التي تعين على تحقيق الوظائف المنشود تنزيلها في الواقع البيداغوجي (التعليمي) والمعرفي والثقافي.

وتتمثَّل أظهر هذه الخصائص في ما يلي:

أولًا- الحرص على البيان والوضوح.

وقد تجلَّى هذا الملمح المهمُّ في عدد من التطبيقات المهمَّة هي:

أ- الأداء الطِّباعي الذي اتخذ قرارًا واضحًا قصد إلىٰ تمييز العنوانات عن المتن وتمييزها عن الهوامش، من طريق التنويع في حجوم الخطوط الطِّباعية، أو أنواع الفنطات الخطية الطباعية.

ب- استعمال المؤكِّدات الطباعية المتمثِّلة في التنويع بين الخطوط الثقيلة (bold) والخطوط العادية المألوفة، والخطوط الدقيقة والمائلة، فضلًا عن توظيف ممتاز لعلامات الترقيم التعبيري بجانب ضبط ما رآه المترجم شكلًا يحتاج إلىٰ ضبط.

ج- التنظيم الطباعي في عملية إخراج النَّص بصورة مريحة نفسيًّا، وهو التنظيم الذي راعَىٰ صناعة ما يلي:

- فواصل لعنوان كل فصل يتضمن العنوان والعتبات النَّصية المتمثِّلة في النُّقول الافتتاحية الممهِّدة لكلِّ فصل منسوبة إلىٰ قائليها.

- استعمال الترقيم العددي للتمييز بين مباحث كلِّ فصل.

ثانيًا- الحرص علىٰ الأبعاد الجمالية الداعمة لعمليات التحصيل.

وهو الأمر الذي تجلَّىٰ في الحرص علىٰ ما يلي:

أ- التصميم الفنِّي للغلاف الذي تعانَق فيه ما يخدُم موضوع الكتاب، حيث احتلَّ مركز الصَّدارة تحت عنوان الكتاب صورة لمخطوط أوروبي بالخط اللاتيني في ما يبدو، يعانقها علىٰ الحاشية اليسرىٰ صورة لمخطوط عربي بالخط اليدوي العربي.

ب- اختيار نوع الخط الذي كتب له النَّص المترجم، وهو خط يتميز بدرجة مقروئية عالية، مقرونة بدرجة جمالية مريحة بصريًّا ونفسيًّا.

ثالثًا- الحرص علىٰ تطبيقات نتائج بحوث الاستعمال.

وقد تمتَّع الكتاب في نشرته العربية هذه باستصحاب نتائج تطبيقات بحوث

الاستعمال التي طوَّرها علْم المراجع، وطورتها المعجمية التطبيقية، وهي التي تحرص على التيسير على المستعملين المتوقَّعين.

وقد تمثلت هذه المسألة في التطبيقات التالية:

أ- صناعة تقديم كاشف للكتاب كتبه مراجِع الترجمة العربية (ص٧-١٢).

ب- صناعة مقدِّمة كاشفة عن الكتاب وإستراتيجية الترجمة العربية (ص١٣-١٨).

وبعض إرشادات الاستعمال.

ج- صناعة كشاف عامٍّ يتضمَّن في ترتيب ألفبائي مشرقي جذعي - أسماء الأعلام، والمدن والمصطلحات.

ومن شأن هذه التطبيقات تحقيق التيسير على المستعملين والتوفير لجهدهم ووقتهم في الوقت نفسه.

٣/٢. **خطاب الملاحظ**: ثمَّة حُزْمة من الملاحظ تحتاج إلى قدر من التأمل؛ بغية اتخاذ موقف إيجابي تحسيني في طبعة تالية لهذه الترجمة، وهذه الملاحظ التي تحتاج إلى نوع مراجعة هي:

أولًا- وجود نوع خلاف في استعمال الأرقام للدلالة على الفصول في متن الكتاب، مع استعمال تسميات: الفصل الأول / والفصل الثاني / وهكذا في فهرست المحتويات.

ثانيًا- عدم توثيق شروح الألفاظ التي حرَّرها المترجم في هوامش مقدِّمة الترجمة، التي صنعها وتوخَّى فيها قدرًا طيبًا من الأدبية واللغة والبلاغية، التي هدف من ورائها إلى تحقيق قدر من المتعة الجمالية لدى مستقبلي الترجمة العربية.

ثالثًا- غياب توظيف التبصُّرات أمام عدد من مداخل الكشاف العامِّ، وعدم

بيان طبيعة المداخل التي وردت في الكشاف العامِّ بين قوسين هلالين من غيرها مما لم توضع بين هذين القوسين.

رابعًا- غياب تكشيف عدد من المداخل في الكشاف من مثل:

غياب تكشيف تسطار، ص١٦٢/٨، وزيفون، ص١٦٣/٢٠، وهيبريد، ص١٦٣/٢٠.

وغيرها من مداخل بعض المفردات في عناصر الكشاف.

خامسًا- استعمال مكافِئات ترجمية غير شائعة مع انتشار مكافئات ترجمية واضحة ومستقرَّة في اللسان العربي؛ فقد استعمل المترجم (وثْب النظر، ص٦٥) يقول: «هناك نوع آخر من أخطاء النِّساخة يتكرر باستمرار، درس منذ زمن طويل هو (وثب النظر)».

ويقول: «لقد تساءلت عن العنصر الذي يحذف عادة العنصرين المتشابهين اللذين يتسبَّبان في (وثب النظر)».

والمكافئ التَّرجمي العربي الشائع هو: «انتقال النظر»، الذي يتسبب في مشكلين من مشكلات النَّسْخ في تقاليد كتابة المخطوطات هما:

أ- الحذف أو إسقاط أجزاء من النَّص، إن كان انتقال النظر لأسفل.

ب- الزيادة أو التكرار لأجزاء من النَّص، إن كان انتقال النظر الأعلى.

سادسًا- حاجة الكلمات اليونانية إلى التعليق عليها في الهوامش بالترجمة، وبالكتابة الصوتية خدمة للمستعمِل العربي.

سابعًا- غياب صناعة فهرس للأشكال التي وردت بالكتاب (ص٥؛ ٢٢؛ ٤٧؛ ١٢٩؛ ٢٠٦).

ثامنًا- وجـــود خلــل في بعـض المـؤشرات المكانيـة أمـام عـدد مـن المـداخل في الكشاف العام، فقد ورد المدخل (تيط ليف) في الكشاف العام مقرونًا بمؤشره المـكاني (ص١٦٤) ولا وجود له في هذه الصفحة، على حين ثمَّة وجـود للمـدخل تيـت ليـف) في (ص١٤٢/١٨) !

الخاتمة

تناولت هذه القراءة العلمية فحصًا لكتـاب (المخطوطـات) لـــ ألفـونس دان، في ترجمته العربية التي نهض بها مصطفى الطوبي، من خلال ثلاثة مطالب هي:

١- الخطوط العريضة لإسهام الغرب في خدمة حقل دراسات علم المخطوط.

٢- تحليـل مـادة الكتـاب وانتماءاتـه المعرفيـة وقيمتـه الحـضارية والتاريخيـة والمعرفية.

٣- تحليل خطاب ما يمكن استثماره في المجال العربي.

وقد توصلت هذه القراءة العلمية إلى:

أولًا- مثَّلت ترجمة هذا الكتاب إضافة مهمَّة ومعتبَرة للمنجَـز الـرامي إلى تعزيـز بحوث علم المخطوط.

ثانيًا- اتساع دوائر الانتماءات المعرفية الـتي يمكـن تـسكين الترجمـة العربيـة للكتاب على خريطتها، من مثل مجـالات دراسـات التـاريخ، والفيلولوجيـا، والحـضارة وغيرها.

ثالثًا- ظهـور نمـط «كـوني» يهـدف إلى خدمـة حقـل دراسـات المخطوطـات في الثقافات واللغات المختلفة.

رابعًا- مثلت هذه الترجمة خطوة مهمَّة على طريق استقرار الجهاز الاصطلاحي لعلم المخطوط في المجال العربي، واتجهت نحو حسم عدد من الخلافات الدائرة حول بعض المفاهيم المركزية.

خامسًا- تمتعت الترجمة العربية بحُزْمة من الخصائص المعينة على تحسين التلقِّي والتحصيل.

